

مقدمة

معنى الفلسفة الإسلامية :

اختلف العالمون للتراث العقلي الإسلامي في معنى الفلسفة الإسلامية تبعاً لاختلافهم في موقفهم من العقيدة العربية : فالتين يرون أن الجنس العربي ليس من صفاته التعمق في التفكير ولا الابتكار في الرأي والحلول لما يواجهه من مشاكل ، يعرفون الفلسفة الإسلامية بأحزاب آراء للدارس الإغريقية الفلسفية التي دخلت الجماعة الإسلامية عن طريق الترجمة والتقليد واشتتات بها طائفة من علماء المساهين - إما بنسرحها أو بالتوفيق بينها وبين مبادئ الدين الإسلامي إن بدا هناك تمارض أو تناقض - أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم ممن يعرفون في تاريخ الثقافة العقلية الإسلامية بالفلاسفة أو الحكماء . وأصحاب هذا الرأي هم فريق المستشرقين (١) .

[١] من أمثال دي بورندي يعرفون (في كتابه الفلسفة الإسلامية ص ٣١ - ٣٢) « متابعة البحث مستقلاً كان فكرة لا تقع في مخ الشرق الذي يصور لنفسه أن الإنسان بدون علم تلميذ الشيطان ، وكل ما كان للمسلمين أنهم افشوا أثر الفلاسفة اليونانيين وحاولوا التوفيق بين أفلاطون وأرسطو تارة ، أو عبدوا إلى التعاليم التي تحدث اصطلاحاً فأسقطوها في صمت ، أو أولوها بمعنى لا يتعارض بشدة مع العقيدة (الإسلامية) نارة أخرى . »

والفريق الآخر - الذي يرى أن العربي إنسان له من الخصائص العقلية الطبيعية ما للإنسان في أي مكان ومن أي جنس ، ومن هذه الخصائص العقلية العقل المنظم الذي يسمى عادة باسم الفلاسفة - يطلق الفلاسفة الإسلامية على تفكير الجماعة الإسلامية في الكون وفي ما وراءه ، وفي الإنسان فردا وجماعة . . . ، ولكن فقط لأنها جماعة إسلامية كان تفكيرها الفلسفي في حدود ماورد به الإسلام من مبادئ ووصايا . وهذا الفريق هو بعض العلماء الأوربيين^(١) من غير المستشرقين ممن تناولوا تاريخ الجماعات الإنسانية بالوصف والعرض بعنوان كونها جماعات إنسانية ، بغض النظر عما يفرق بينها من عقيدة أو عادات .

والمسلمون ، بناء على رأي هذا الفريق الثاني ، يجوز أن يكون لهم بناء في تاريخ الحياة العقلية الإنسانية ، ويجوز أن يكون تفكيرهم استمرارا ،

[١] من هؤلاء المؤرخ العقل الألمان فيلهلم ديلتاي Wilhelm Dilthey الذي يقول (في كتابه *Einleitung in die geistwissenschaft* ج ١ ص ٢٩٢ - ٢٩٤ طبع برلين سنة ١٩٣٣) : « والغرب مدين للعرب في توسيع نطاق الجبراليوناني ، وبلا شك قد هيئوا الأمر بتقديم الخاص إلى نشأة العلم الطبيعي الحديث فتوسعوا في الكيمياء عما وصلت إليهم من مدرسة الاسكندرية وأوجدوا عدة مستحضرات كيميائية كما تقدموا في الرياضة واستخدموها كآلة للتقدير الكمي (في المساحة) » . إذ اعترف بأن العقلية العربية يحق لها أن تنتج كعقلية أي جنس آخر وأنها قد أنتجت بالفعل في بعض الموضوعات وأنه كان لهذا الانتاج أثر في تطور العقلية الغربية .

لاتقليدا ، لتفكير من سبقهم من مفكري الإغريق وغيرهم ، بينما عملهم العقلي ، على الرأي الأول ، هو فقط في دائرة مارسعه الإغريق لا يخرج عن مشاكته ولا عن حلول تلك المشا كل .

والفلسفة الإسلامية الإلهية ، أو فلسفة ما وراء الطبيعة عند المساهين ، بناء على الرأي الثاني أيضا ، تشمل كل تفكير إسلامي في الله ، سواء في تحديد ذاته أو صفاته أو في شرح علاقته بالكون وبالأخص علاقته بالإنسان . والكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد من الحكماء عندنا . كأي المهذبل العلاف والنظام من المعتزلة ، وكالأشعري وإمام الحرمين والغزالي من الأشاعرة ، في أن كل واحد من هؤلاء استخدم العقل في بحثه في حدود ما ورد به الدين ، وتأثر بأراء الإغريق في بحثه ، ولكن فقط درجة التأثير بين هذه الطبقات الثلاث متفاوتة . أشدها درجةً عند من يعرفون باسم الفلاسفة والحكماء ، وأخفها عند من يعرفون باسم الأشاعرة ، أما المعتزلة فهم وسط بين الطبقتين .

ومجمل القول أن هناك رأيين في تحديد الفلسفة الإسلامية : أحدهما قائم على عدم استقلال العقل العربي بالانتاج ، وأن ما ينسب إليه من فلسفة إن هو إلا فكر الإغريق تناولها بالشرح والترديد . والآخر يرجع إلى الاعتراف بتساوي العقل العربي مع عقل أي شعب آخر في جواز الانتاج والابتكار إن لم تحل حوائل دون الانتاج والابتكار ، وعلى هذا ليست الفلسفة العربية أو الإسلامية

هي ففكر الإغريق التي احتضنها العقل العربي بل يجوز أن يكون له وراءها مشاكل وحلول أخرى ، سواء لهذه المشاكل أو غيرها .

صوف المؤرخ النفاي من المعالجين للتراث العقلي الإسلامي :

وربما كان لأصحاب الرأي الأول شبهة في ظاهر الأمر ، إذ أن ضخامة الثقافة غير الإسلامية ، وبخاصة الثقافة الإغريقية ، التي دخلت الجماعة الإسلامية مع الأجناس الأجنبية وحماها رؤساء المسلمين حينها ، أو شجعوا على نقلها ومدارسها فيما بعد من جهة ، ثم غلبة الصيغة العقلية العامة عليها من جهة ثانية ، وطول النقاش فيها من العقيدة الإسلامية بين أخذ ورد ، وانهماكها في ذلك فترة طويلة استغرقت فترة النشاط للعقل الإسلامي المنتج (إلى آخر القرن السابع الهجري تقريبا) من جهة ثالثة ، وأخيرا عدم وجود تراث علمي^(١) قبل اختلاطهم بغيرهم ، من جهة رابعة ، كل هذا جعل أصحاب هذا

[١] إذ « المعرفة » التي كانت لديهم في عصرهم الجاهلي لم تنم على مشكلة من مشاكل العالم وتحليلها ، ولم تتضمن شرحا منظما لمعاني حقيقة من الحقائق فيه ؛ بل كان قواءها التجارب البدائية . ومثل هذه المعارف لا تأخذ صبغة « العلم » . وفي عصر صدر الإسلام كان القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم هما ما كان لديهم من « معرفة وهي معرفة « دينية » أو معرفة « وحيية » . ومثل هذه المعرفة وإن عصمت عن الخطأ ، إلا أنها لا توصف « بالعلمية » . إذ العلم يطلق على ضرب من معرفة الإنسان كونهما بتأيسر العبرة لديه من منطق أو تجربة وبلغت في الدقة عند منعت اليقين الجازم . وما كان للعرب إلى أن اختلفوا بغيرهم من أرباب الثقافات الأجنبية لا يخرج عن « الأدب » بنوعه ، وتلك المعارف التي كونتها الملاحظة الأولية أو استصحابها التقاليد .

الرأى - وهم فريق من الأجانب المستشرقين الذين نصبوا أنفسهم لمعالجة التراث الإسلامى الدينى أو العقلى منذ القرن الثامن عشر الميلادى تقريبا - على أن يدعوا ما ادعوه ، ويحكموا بأن التفكير الإسلامى العقلى لم يخرج عن النطاق الذى رسمه الإغريق ولا عن الشروح التى قام بها رجال العصر الهلاليين الرومانى ، فما تناوله التفكير الإسلامى العقلى من مسائل هى المسائل التى حددها فلاسفة الإغريق ، وما ذكره لها من حلول هى أيضا الحلول التى نقلت لهذه المسائل عنهم أو عن تلامذتهم من غير المسلمين .

واختلافهم فى هذا الحكم اختلاف فى عرضه فقط ؛ فبينما نرى مثلا «ما كس هورتن» الألمانى و «رينان» الفرنسى ينالغان فيه فيسلبان العقلية الإسلامىة المتفلسفة كل أمر غير الترديد أو التقليد ، إذا «بجلدزيهر» المجرى و «دى بور» الهولاندى و «كارا - دو - فو» الفرنسى يخففون من هذا الغلو بحجة عدم الوقوف على المصادر العربية التى تصور لهم الأثر السكامل المستقل للعقلية الإسلامىة المتفلسفة .

وبجانب حكم المستشرقين وتكليفهم لعمل العقلية الإسلامىة فى التراث الإغريقى على النحو الذى أشرنا إليه ، لا يخفى بعض المؤلفين المسلمين الذين أرخوا للديانات الشرقىة والمال والنحل مثل البيرونى وابن حزم والشهرستانى حكمهم بتأثر الفرق الإسلامىة - فيما لها من أصول وشروح لهذه الأصول - ببعض مسائل هذه الديانات ، وما نقل لها من تعليقات أو شروح . ويجاريهم فى هذا الحكم

الآن بعض المحدثين المصريين المارضين للتراث العقلي الإسلامي .

والمؤرخ الثقافي - في عرضه للحياة العقلية الإسلامية بالرغم من مثل هذه الشبهة أو غيرها - يجب أن يقف من دعوى محض تأثر المسلمين بغيرهم من أرباب الثقافة الإغريقية أو أرباب الديانات الشرقية ، كما يجب أن يقف مما يقابل هذه الدعوى ، موقف الناقد المجرد عن الغرض ، والعارض لتيارات هذه الحياة كما هي ، دون أن يصنع في مجاريها تحويرا ، أو أي تغيير على العموم .

وإزاء هذا نرى أن نعرض للتفكير الإسلامي في أطواره المختلفة لتبين :
أحقا تأثر التفكير الإسلامي بالفكر الإغريقي على وجه أن هذا اقترح عليه المسائل ووضع له حلولها ؟ وحقا تأثرت بعض الفرق الإسلامية - في نشأتها وفيما كان لها من آراء - ببعض الديانات الشرقية ؟ أم كان التأثر فقط - إن كان هناك تأثر - في التوجيه وفي نوع المعالجة دون المشا كل ذاتها ، أما المشاكل نفسها فهي موجودة لأنها من إملاء الواقع ، وواقع الجماعة الإنسانية في جملته واحد ؟ .

والوقوف على قيم مثل هذه الأحكام هو المهمة الأولى لتاريخ التفكير البشري أو لتاريخ الفلسفة . وبهذه المهمة يبقى العقل الإنساني ناقدا . والنقد رسالته الفطرية الطبيعية . وتقليده في الأحكام أو الآراء فقط عند ما يباعد بينه وبين فطرته تحت تأثير العادة أو الشيوع أو غير ذلك من عوامل التأثير .

ولما كان التفكير الإسلامي متشعبا نرى - ضبطا للوقوف على تطوره وبالتالي لإصابة الهدف الذي حددناه الآن وهو تعرف قيمة الحكم على تفلسف المسلمين وعملهم العقلي من وجهة نظر المعالجين للتراث العقلي الإسلامي من أجناب ومسلمين - أن نعرض منه جانبا بعد آخر في عبوره الزمنية . إذ لهذا التراث جوانب متعددة ؛ فله جانب إلهي يتناول الله وصفاته وعلاقته بالعالم ، وآخر أخلاقي يتناول الإنسان وتصرفاته وغايته ، وثالث طبيعي يتناول المسلم المشاهد وأصله وتطوره ، ورابع رياضي يتناول الحساب والجبر والمهندسة... الخ

ولسلك جانب من هذه الجوانب عوامل أثرت في نموه أو تطوره ، وعلماء كذلك عرفوا بالتوفر على الاشتغال به . وقد تكون العوامل التي أثرت في جانب غير العوامل التي أثرت في جانب آخر وإن كان يجمع كل العوامل مصدر عام واحد . فإن قيل مثلا إن البيانات الشرقية ، أو المصدر الشرقي للثقافة غير الإسلامية ، أثر في التفكير الإسلامي فقد يكون صحيحا على وجه العموم . ولكن ما أثر منه مثلا في الجانب الإلهي لتفكير المسلمين ، أو تفلسفهم في الإلهيات ، غير ما أثر في الجانب الأخلاقي من هذا التفكير : فالمسيحية قد يدعى أنها أثرت في التفكير الإسلامي ولكن ما نجمه منها أثر في الجانب الإلهي من تفكير المسلمين غير الذي يدعى أنه أثر منها في الجانب الأخلاقي . فشرحها أو ماسنسميه مسيحية مفاسفة أو فلسفة المسيحية أو علم الكلام عند المسيحية هو مظنة التأثير في الجانب الإلهي بينما أصلا أو ماسنسميه بالمسيحية

النصية أو المسيحية قبل المرح والتفلسف هو مظنة الأثر في الجانب الأخلاق من التفكير الإسلامى إن ادعينا أنه تأثر بالمسيحية . وهكذا ...

وليس الوقوف على مدى العمل العقلى للمسلمين وبيان قيمته هو فقط هدفنا من عرض التفكير الإسلامى فى تطوره على هذا النحو ، بل هناك هدف آخر وراءه يتعلق بكتب التراث الإسلامى التى وضعت للدفاع عن العقيدة الإسلامية منذ القرن السادس الهجرى وهى التى اشتبكت فيها طريقة الفلاسفة مع طريقة الكلاميين السلفيين . فلا تتبين قيمتها العلمية وبالتالي لا يسهل فهمها إلا بمعرفة عناصر المکتوب فيها ، وهى عناصر إسلامية وغير إسلامية ، ولا تتبين قيمتها كذلك إلا بمعرفة أصول العناصر المخيلة غير الإسلامية .

والدفاع عن العقيدة الإسلامية لا يجدى فى عصرنا الحاضر إلا بمعرفة قيم ما أنتجته العقليّة الإسلامية وبالأخص فى الجانب الإلهى إن كان لها إنتاج ، ومعرفة قيم ما نقل عن الثقافات الأخرى أيضاً . ولا شك أن الوقوف على قيمة حكم المستشرقين وحكم المسلمين المعالجين للتراث الإسلامى العقلى ، على عمل العقل الإسلامى فى هذا التراث ، وهو الهدف الأول لمرضنا هذا ، يتضمن كذلك الوقوف على قيم العناصر العقلية سواء أكانت إسلامية أم غير إسلامية ، وفى بيان قيمتها يتضح ضعفها أو قوتها فى ذاتها . فتاريخ التفكير الإسلامى - كعلم مهمته النقد - هو إذاً أسلوب اليوم فى الدفاع عن العقيدة الإسلامية .

وسنحصل بهذا العرض إذاً على غاية عامة إنسانية لها صلة بالتفكير
الإنساني ، وعلى غاية أخرى خاصة لها صلة بكتب العقيدة الإسلامية .

* * *

وسنبداً هنا بالجانب الإلهي من تفكير المسلمين لأمرين :

أولاً : لأن هذا الجانب كان بوجه عام هو المسيطر على تفلسف القدماء
والقرون الوسطى .

ثانياً : لأن المسلمين لم يعنوا بجانب من جوانب تفكيرهم كعنايتهم
بهذا الجانب . إذ الإله وصفاته - وهو موضوع هذا الجانب ، على نحو ماورد
به الإسلام - كان الأساس الأول في كيانهم ووجودهم كجماعة إنسانية
معينة ؛ تميزت بأسمائها الإسلامية ، لها غرضها وهدفها في هذه الحياة . فكفاحها
في دعم هذا الأساس كفاح من أجل هدفها أو كفاح في سبيل حفظ بقائها .
وناحية من نواحي الجماعة الإنسانية تمس حفظ بقائها لاشك أنها الناحية
الأولى في تفكيرها والأولى في الحذب على صيانتها .